التربية

(ووجه الحاجة اليها وتقاسيمها)

« والكلام على تربية الامم والاسلام ، والتربية الدينية والاسلام ، وتربية الارادة »

(خطبة ارتجالية ألقيت في مدرسة العلوم الكلية بعليكره)

أيها النواب الجليل ! أيها الاساتذة والوجوه الاجلاء ! والطلاب النجباء !

شرفتموني بدعوتكم إياي الى الخطابة فيكم ، فلم أر بدًّا من اجابة دعوتكم والشكر لكم، وقد اخترت أن يكون كلامي في التربية التي هي من علمكم وعملكم، وان كنت في ذلك كمن ينقل التمر الى البصرة — كما يقال في المثل — ولوشئت لتكلمت في موضوع ليس لكم فيه علم تفصيلي كحالة المسلمين في بلادنا ، ولكن بحث التربية أهم ، والحاجة اليه أشد ، فرأيت أن أعرض على مسامعكم شيئاً من رأيي فيه لانني أشتغل به علما وعملا كما تشتغلون ، فان وافق رأيكم حمدت الله تعالى على اتفاقنا في هذا الشأن العظيم على بعد الدار ، واختلاف اللسان ، وان خالفه رجوت أن تنبهوني وتبينوا لي ما ترون أنه الصواب فأستفيد من علم اخواني وتجاربهم ما أنا في أشد الحاجة اليه ، والحقيقة بنت البحث كما يقولون

تنقسم مباحث التربية الى عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، فمن ذلك اقسامها بحسب الموضوع الى تربية الجسد وتربية النفس وتربية العقل ، ومنه اقسامها بحسب الموضع الى تربية المنزل وتربية المدرسة ، وانقسامها بحسب المربي الى تربية الأم والاب للولد وتربية الاستاذين للتلاميذ ، وتربية المرء لنفسه ، وانقسامها بحسب المربَّى الى تربية الافراد وتربية الامم . وهنالك أقسام أخرى أصلية أو فرعية كبحث التربية الدينية ونسبة المسلمين فيها الى غيرهم من أهل الملل ، وبحث تربية استقلال الفكر والارادة وهو من فروع تربية العقل وتربية النفس

أما وجه الحاجة الى التربية فلا أراني في حاجة الى الافاضة فيه لأجل الاقناع به فان هذا قد صار عند أمثالكم من قبيل البديهيات التي لا نزاع فيها ، وانما أذكركم

ببعض آيات القرآن الحكيم في ذلك للتذكير بهدايته العليا وموافقته لما يدل عليه العقل والتجارب ، وتقتضيه طبيعة الاجتماع البشري

قال الله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » يعني ان الله تعالى خلق كل فرد من أفراد الانسان جاهلا لا يعلم شيئا مما يحتاج اليه لاقامة بناء حياته الشخصية والنوعية فكان في مبدأ خلقه وأول نشأته دون سائر أنواع الحيوان التي يخلقها الله تعالى عالمة بما تحتاج اليه بالفطرة متوجهة اليه بالطبع ، ولذا قال تعالى في آية أخرى « وخلق الانسان ضعيفاً » فالانسان من هذه الجهة أضعف من الحيوانات حتى ما كانت بنيتها منها أضعف من بنيته ، ولكن الله تعالى اعطاه من المواهب والقوى ما ان استعمله فيما خلق لأجله كان أقوى المخلوقات في هذه الأرض يسخر الحيوانات القوية لمنفعته ويستخدم قوى الطبيعة في أعماله ، وبهذا كان في مجموعه خليفة لله في أرضه ، يظهر أسرار خلقه وسننه الحكيمة فيها ، وقال تعالى في خلقه بهذه المزايا « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وهو لا يرتقي في معارج الكمال بمزاياه الا بشكر الله تعالى على نعمة الحواس والمشاعر الظاهرة ، والعقول والوجدانات الباطنة ، وعبر عنها بالافئدة في الآية حسب استعمال العرب ، وانما الشكر عليها هو استعمالها فيما خلقت لأجله من تحصيل العلم بالمنافع والمضار والمصالح والمفاسد لأجل العمل بما تقتضيه الفطرة من اجتناب المضرة والمفسدة ، واختيار المنفعة والمصلحة ، على بصيرة وعلم

العبرة في الآية ان الشكر من أعمال الانسان الاختيارية ، لا من المواهب الفطرية ، وقد أرشدنا القرآن ، ودلنا العلم والاختبار ، على أن الانسان يستفيد من حواسه وعقله بقدر تعاون أفراده على ذلك بالبحث والعمل واستفادة المتأخرين مما وصل اليه علم من قبلهم واختبارهم . حتى لا يضطر كل منهم الى استئناف الاختبار لكل ما يحتاج اليه من الضروريات ، فلا يفرغ حينئذ احد منهم الى الترقي في معارج الكماليات ، وجملة القول في هذه المسألة ان الله تعالى وهب الانسان المشاعر والمدارك الظاهرة كالسمع والبصر والباطنة كالعقل والوجدان ، وجعلها آلات له يرتقي بها الى ما هو مستعد له من الكمال ، ووكله في ذلك الى نفسه ، وناط سعادته أو شقاوته بعلمه وعمله ، فكان محتاجا بمقتضى فطرته الى ان يقوم بعض افراده بتربية الآخرين وتعليمهم حتى لا يطول عليهم أمد الجهل ، والخطأ في العمل ، وانما يكمل ذلك بجعل التربية والتعليم فنين ينفرد بهما من يتقنونهما

كما أنعم الله تعالى على افراد الناس بالحواس والعقول ، أنعم على جملتهم بعلم آخر أعلى من العلوم التي يستفيدها كل فرد بكسبه وبحثه ، وهو الوحي الذي أيد به رجالا منهم بإفاضته عليهم من لدنه بغير كسب ولا بحث ، فكان كالعقل للنوع – كما قال الاستاذ الامام – ولولاه لما ارتقى البشر الا في الزمن الطويل ، بالسير الناقص البطيء ، « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »

هذه اشارة الى ما تقتضيه فطرة البشر من الحاجة الى التربية والتعليم ، نقرنها باشارة اخرى الى مكانة التربية والتعليم من دين الفطرة الذي ختم الله به الاديان ، وهو دين الإسلام ، وأكتفي في بيان هذا بقوله تعالى في سورة الجمعة « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وقوله تعالى في سورة البقرة « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » فقد بين الله تعالى أنه ارسل رسوله ليكون مربيا معلما ، فان التزكية هي التربية الفضلى التي تكون بها نفس الانسان زكية كريمة متحلية بالفضائل ، مطهرة من الرذائل ، والكتاب مصدر بمعنى الكتابة اي يعلمهم أن يكونوا كاتبين لما يعلمونه ليحفظ وينتشر ، وان يكونوا حكماء عارفين بالعلوم النافعة التي ترتقي بها افرادهم وجماعتهم ، وليس وراء هذا التعليم وتلك التربية غاية ، الا ما يترتب على الكمال فيهما من سعادة الدنيا والآخرة

تربية الامم ورسالة خاتم النبيين

أنتقل من هذه المسألة الى كلمة أقولها في تربية الامم وهي من أقسام التربية التي بينتها في بدء الكلام فأقول : المراد بتربية الامم إحداث انقلاب عام فيها ونقلها من طور الى طور اعلى منه وأرقى في الحياة المادية والمعنوية ، وهذا العمل هو اشق الاعمال البشرية وأرقاها ، وهو يتوقف على علم صحيح واسع يقل في الناس من يتقنه ، وعلى بصيرة نافذة يندر في البشر من يؤتاها ، وعلى اعوان كثيرين من اهل هذه البصيرة والعلم يعملون بالتعاون والاخلاص ، وما كل عليم بصير يتقن العمل بعلمه ويفلح فيه ، وان كان همه دون اصلاح احوال الامم ، وتغيير احوالها الاجتماعية ،

وانما تتغير أطوار الامم عادة بالتدريج البطيء ، في الزمن الطويل .

ان علوم الاجتماع البشري والاخلاق وطبائع الامم والسياسة والتربية وغيرها من العلوم التي يحتاج الى معرفتها رجال الاصلاح الذين يربون الامم قد صارت مدونة تدرس في معاهد العلم وهي مقتبسة من كتب الاديان ومن التواريخ والتجارب ، والمتقنون لها في الشعوب الراقية كثيرون في أنفسهم وان كانوا أقل من المتقنين غيرها ، ولكن لا يوجد فيهم من يقدر على احداث انقلاب سريع او تغيير في احوال امة من الامم البدوية دع الامم الحضرية ، وانما يحاولون مثل هذا التغيير بانشاء المدارس الكثيرة وتعميم التربية والتعليم ، وتعاقب القائمين بذلك عدة اجيال ،

اذا تصفحنا تاريخ البشر رأينا ان أبدع مثال واغرب صورة من مثل تربية الامم وصورها هو ما كانت رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أمي نشأ لم يقرأ كتابا ، ولم يمسك بيده قلما ، بل لم يكن يوجد في بلده الذي نشأ فيه كتاب يقرأ (بالمعنى الذي يفهم الآن من كلمة « كتاب » وهو مجموعة صحف كتب فيها كثير من المسائل) وقال بعض المؤرخين: انه لم يكن يوجد في مكة قبل بعثته أحد يعرف الخط الا ستة رجال لما تعلموه في مدرسة ، ولا قرءوا به علما ، وانما ألجأتهم الضرورة الى ذلك بالاتجار ، ومخالطة بعض الشعوب في الاسفار ، نبي هذا شأنه وشأن قومه في الأمية ، والبعد عن اسباب العلم والحضارة ، نهض بتربيتهم وهو في سن الكهولة ، فلم التغيير والتبديل ، قبل انقراض الجيل ، بهداية هذا القرآن الحكيم ، وتربية هذا النبي الامي العظيم ، ثم حمل هذه الهداية الذين تربوا بها في الكبر ، الى أهل الحضارة والبداوة من شعوب البشر ، فما دخلوا قطرا من الاقطار محاربين أو مسالمين ، الا وجذبوا أهله الى دينهم ولغتهم من غير مدارس تنشأ ، ولا كتب تقرأ ، ولا مجالس للجدال تعقد ، ولا أموال ولا منافع تبذل ، ولا سيف للاكراه على الدين يستل ، وانما كانت سيرتهم الطاهرة ، وآدابهم العالية ، هي التي تجذب الامم اليهم ، وتقسر سرائرها على الاقتداء بهم ، وتقود عقولها الى الدخول في زمرتهم ، وقد شهد لهم ولمن تبعهم من بعدهم علماء الافرنج المنصفون ومؤرخوهم المحققون ، قال الحكيم الفرنسي غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب: ما عرف التاريخ فاتحا أرحم ولا أعدل من العرب .— وقد بينت كيفية نشأة الاسلام وانتشاره في خطبتي الختامية لاحتفال ندوة العلماء .—

أريد بذكر هذا المثال الخارق للعادة من تربية الامم أن اذكر لكم آية على نبوة

نبينا صلى الله عليه وسلم تفوق جميع ما أوتي النبيون من الآيات التي لاجلها آمن بهم الناس ؛ فانها آية علمية عملية ، تدل على التأييد الالهي دلالة عقلية حسية ، وأما نحو قلب العصا حية وإبراء الاعمى والأبرص فليست دلالة على النبوة من هذا القبيل ، وقد آمن بسببها من آمن من الناس لأنهم اعتادوا ان يخضعوا لمن يظهر على يديه أمر يعلو قدرتهم ؛ لاعتقادهم ان ذلك لا يكون الا من القدرة الالهية ، والسلطة الغيبية ، وكانوا بذلك يقبلون هداية الانبياء عليهم السلام فيحصل المقصود من بعثتهم. وقد ضرب أبو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم مثلا للفرق بين الآية العلمية التي هي العمدة والأصل في الدلالة على نبوة نبينا (ص) والآيات الكونية التي كان يحتج بها الأنبياء السابقون عليهم السلام فقال: اذا ادعى رجل انه طبيب ودعا المرضى الى قبول معالجته واستعمال أدويته واستدل على صدقه في دعواه بقلب العصا حية لا يكون دليله كدليل من يدعي مثل دعواه ويدعو الى مثل دعوته مستدلا على صدقه بكتاب ألفه في علم الطب ثم بمعالجته طائفة من المرضى بما في ذلك الكتاب من بيان طرق العلاج والادوية وشفائهم بذلك في أقرب وقت وأسرعه

نشأ نبينا صلى الله عليه وسلم أميا بين قوم أميين ولم يعن في صباه وعهد شبابه بما كان يعنى به فصحاء قومه واذكياؤهم من الشعر والخطابة ، والمباريات في المفاخرة والمنافرة ، ثم قام في سن الكهولة يدعو قومه وسائر الامم الى إصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم وسياستهم واحوالهم الشخصية والاجتماعية ، وقال أن الله أوحى اليه من العلم ما يكفل ذلك ووعده أن يؤيده فيه فهو يربي قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته ويبثون حكمته في الامم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الامم والشعوب من حال الى حال أعلى وارقى – من الوثنية والعبودية والذلة والظلم وفساد الاخلاق والآداب والجهل الى التوحيد والعدل والحرية والآداب والفضائل والعلم وثمراته ، – وقد كان ذلك – فهل يعقل ان هذا مما يقدر عليه أمي مثله بعلمه الكسبي واستعداده الشخصي؟

كيف ونحن نرى الدولة القوية بالعلم والنظام والسلاح تستولي على قطر من الأقطار أو شعب من الشعوب بالقوة القاهرة ثم تقبض بكلتا يديها على جميع اسباب حياته الحسية والمعنوية ، ومصالحه الجسدية والروحية ، وتحاول ان تربيه تربية جديدة ، مهتدية في ذلك بالسنن التي هدتها اليها علوم الاجتماع والسياسة ، فتمنعه من قراءة ما ينافي غرضها من الكتب والصحف ، وتنشيء له المدارس في كل بلد من قبلها

وتبث في كل منها دعاة دينها ، فيعلمون الصغار في هذه المدارس لغتها ودينها وتاريخها وكل ما يشغل النفس والعقل بها ، ويحولون المتعلمين عن دينهم ومقومات أمتهم ومشخصاتها الى أنحال ما تحاول الدولة الفاتحة ان تحدثه لهم من المقوّمات والمشخصات ، ثم نراها لا تكتفي بتكوين الصغار تكوينا جديدا ، بل تحدث في نفوس الكبار كل ما يستطاع من الاحداث التي تزعزع كل ما كانوا عليه من مقومات أمتهم ومشخصاتها كتغيير العادات والأزياء ، ونشر الجرائد التي تشغل الأذهان والافكار بعظمة تلك الدولة وامتها وآدابها وسياستها ، — يتولى كل هذه الاعمال رجال استعدوا لها ، وحذقوا علومها في المدارس العالية ، ثم تمرّ الأجيال ولا تستطيع دولة من هذه الدول الفاتحة بالعلم والقوة ان تحوّل أمة عن دينها ولغتها كالتحويل الذي احدثه الاسلام في جيل واحد بتحويل عدة أمم عن دينها ولغاتها وعاداتها بدون استعانة على ذلك بالمدارس والجرائد ، ولا بغير ذلك من الاسباب الصناعية التي هدت اليها العلوم الاجتماعية ، أليس هذا برهان علمي قطعي على ان نبينا (ص) كان مؤيدا من الله تعالى فيه وانه من خوارق العادات ؟ بلى إنه أعظم الخوارق وأقواها ، وأظهر المعجزات واسماها ، وحسبنا منه الاشارة اليه ، والتذكير به

تربية البيوت والامهات

أنتقل من هذا الى كلمة وجيزة في تربية البيوت — : تعلمون أيها الفضلاء أن تربية البيوت هي الاساس الذي يبنى عليه ما بعده ، وان الامهات هن اللواتي يقمن بها ، وماذا نفعل في أمر هذه التربية ونساؤنا قد استحوذ عليهن الجهل بكل ما تتوقف عليه التربية من العلوم والآداب الدينية والدنيوية بعد أن كن يضربن مع الرجال في القرون الاسلامية الاولى والوسطى بكل سهم ، وينلن حظهن من كل علم ؟ — لأن الاسلام فرض العلم على الرجال والنساء جميعا ، ولم يجعل بين الفريقين فرقا في التكاليف الا ما هو خاص بكل منهما بمقتضى الفطرة او طبيعة الاجتماع (كأحكام الحمل والولادة الخاصة بالنساء وفنون القتال الخاصة بالرجال)

لا يمكننا أن نقيم التربية القويمة على اساسها الا اذا ربينا النساء وعلمناهن ما يتوقف عليه قيامهن بتربية أولادهن ، وقد اضطرب المسلمون في هذه المسألة فبعضهم يدعو الى تقليد الافرنج في تعليم نسائهم وتربيتهن وهم يظنون اننا اذا ربينا نساءنا على نمط تربية نسائهم ، وعلمناهن امثالهم ، نكون في دنيانا مثلهم في دنياهم ، وهذا جهل بعلم

الاجتماع وطبائع الامم عظيم ، وخطؤه في علم التربية والاخلاق كبير ، والصواب أننا نهدم بهذا التقليد مقوماتنا ومشخصاتنا الملية والقومية ، ولا نستطيع ان نبني به مثل مقوماتهم الاجتماعية ، فعلينا أن نربي بناتنا على آداب ديننا وفضائله واحكامه ، وان نعلمهن لغة ديننا ولغة وطننا ، وتاريخ أمتنا وديننا ، وعلم التربية وتدبير المنزل والحساب وقانون الصحة ، وشيئا إجماليا من شؤون العالم واحوال العمران يعرفن به حاجات العصر الذي يعشن فيه . ويدخل في هذا علم خرت الارض وتقويم البلدان (الجغرافية) والتاريخ العام

هذا هو الذي لابد منه لكل امرأة ، وقد يحتاج الى تعليم بعضهن العلوم العالية التي لابد منها كالطب والجراحة ولا سيما القسم النسائي منه المتعلق بالحمل والولادة ، وكفن التعليم فان اللائق بآداب الاسلام ان تكون المرأة هي التي تعلم البنات وتطب النساء وكما نحتاج الى الطبيبات والمعلمات منا نحتاج الى المربيات في البيوت فان أمراءنا وكبراءنا ومقلديهم من سائر طبقات الاغنياء لجؤا الى المربيات الاوربيات يلقون اليهن بأفلاذ اكبادهم من الذكور والاناث فيربينهم على آداب وأخلاق غير آداب ملتهم وأخلاقها ، ويعلمنهم لغات غير لغات أمتهم ودينهم ، ولا خير لهم في هذا ولا لأمتهم ، لانهم يتشكلون بشكل لايتفق مع شكلها ، فتنفصل منهم وينفصلون منها ، فان للنفوس في أفكارها وعقائدها وأخلاقها ورغائبها أشكالا كالاشكال الهندسية فاذا كنا لانستطيع ان نقيم بناء رصينا محكما منتظما من حجارة بعضها مثلث وبعضها مربع وبعضها كروي فكذلك لانستطيع أن نكون أمة عزيزة راقية من أفراد تختلف اشكال نفوسهم العقلية والنفسية وما يترتب عليه من اختلاف أعمالهم وعاداتهم ، نعم ان هؤلاء الذين تربيهم النساء الافرنجيات قد يكونون أرقى في الآداب الاجتماعية العصرية والنظافة من أمثالهم الغفل المهملين ، الذين يوكلون الى مايقتبسونه من العشائر والمعاشرين ، وتفضل السيف على العصا لايعد فضلا كبيرا ، وانما نطلب تربية نكون بها أمة حية عزيزة متحدة كغيرنا من أمم الحضارة ، ولن ندرك هذا بمثل هذا التفرنج التقليدي في كبرائنا ، بل هذا أقوى مايحول بيننا وبين مانريد

تربية المدارس

يجب ان تكون عنايتنا بتربية المدارس اشد من عناية غيرنا لاننا وقد تعذرت علينا التربية الاساسية الاولى بجهل نسائنا تربي تلاميذ سرى الفساد الى أخلاقهم ، والخرافات

الى عقولهم ، ولكننا لم نقم بهذا الواجب ولم تعن مدارسنا بالتربية النفسية ولا بالتربية العقلية التي هي وظيفتها الاولى ،

لا أعني بالتربية العقلية تعليم العلوم التي يرتقي بها العقل فان التعليم -وان كان يدخل في مفهوم التربية العام الذي يشمل تربية الجسم والنفس والعقل - قد خص بهذا الاسم دون سائر انواع التربية وصارت المقابلة بين التربية والتعليم من المقابلة بين العام والخاص. وانما اعني بالتربية العقلية أن يتوخى في اسلوب التعليم استقلال عقول الطلاب في الفهم والحكم في المسائل ، وتحرير الحقائق وأن لا يعوّدوا أخذ المسائل العلمية بالتسليم والتقليد ، فبهذا تربي العقول وتنمو الافكار وتخرج العلماء المستقلون الراسخون ،

إنما سبب تقصيرنا في التربية المدرسية فقد الاساتذة الاكفاء القادرين عليها أو ندرتهم ، فانه يقل في المتعلمين منا من تربى تربية صالحة يرجى نفعها ، وانما يقوم بناء التربية على اساس القدوة والتأسي بالمربي والاستفاضة من ينبوع فضائله وصفاته « وفاقد الشيء لايعطيه » وقصارى ما يمكن أن يطالب به العقلاء من نظار المدارس واساتذتها هو أن يتكلفوا مايجب عليهم من ذلك تكلفا عسى ان يصير مايتكلفونه خلقا لهم أو لتلاميذهم ، وان يرشدوا الطلاب الى العناية بتربية أنفسهم

تربية المرء لنفسه

ايها الطلاب النجباء !

إني اخصكم بالخطاب والتذكير في هذا القسم من اقسام التربية . سمعتم قولي في تقصير مدارسنا في التربية ورأيي في سببه ، وأزيدكم على ذلك أن المدارس التي هي أرقى من مدارسنا في الامم التي هي أرقى في الحضارة والعلوم من أمتنا ، لاتستقل بتخريج الرجال العظام ولا بتكميلهم في التربية والتعليم فان كثيرا من المتخرجين في مدارس أوربة الجامعة يكونون لصوصا وفوضويين وفجرة يفسدون في الارض ويسفكون الدماء . المدارس تفتح للطلاب ابواب العلم ، وتدلهم على طرق العمل لانفسهم ولقومهم أو جنسهم ، ولكنها لاتبوئهم تلك البيوت ، ولا تقودهم في تلك الطرق حتى توصلهم الى غاياتها ، وانما ذلك عليهم لا على المدارس ، وان بعض المديرين لشؤون المدارس او المسيطرين عليها قد يريدون من تربية النابتة وتعليمهم مالا تريده تلك النابتة لانفسها لو عقلته وعرفت عاقبته . فينبغي للاذكياء من طلاب العلوم أن يكونوا على بصيرة في تعلمهم وتربيتهم ، وأن يعلم كل واحد منهم أنه لاينال الكمال

الممكن الا بجده الشخصي وعنايته بتربية نفسه وتكميلها

ربوا عقولكم على الاستقلال في الفهم ، والاستدلال على المطالب ، لتكونوا علماء بأنفسكم ، لا نقلة تحكون علم غيركم ، ليكن العلم صفة من صفاتكم لا صوراً خارجية تعرض على مرآة أذهانكم

ربوا أنفسكم على الفضيلة والتقوى وعلو الهمة وقوة الارادة ومضاء العزيمة ، لتكونوا كملة في أنفسكم ، وقدوة صالحة لامتكم ، إني أعلم انا اكثر طلبة العلم منكم ومن غيركم يطلبون العلم لاجل المعاش لا لاجل تكميل النفس بالفضيلة ، ولا لاجل النهوض بالامة ، وأعلم مع ذلك أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة (كما ورد في الحديث الشريف) وأن من كان معدنه شريفاً وجوهره كريما لا يرضى لنفسه اذا عرف مزايا جوهرها أن تكون في مرتبة المعادن الخسيسة

لا أقول إن من يطلب العلم الدنيوي لاجل الكسب يكون خسيسا مذموما فان الكسب مطلوب بل ضروري ولا بد في اتقان اسبابه من العلم ، فمن يطلب العلم ليكون حاكما أو طبيبا أو مهندسا أو صيدليا أو تاجرا أو قائما بغير ذلك من أعمال العمران حقيق بأن يكون محمودا في علمه وعمله ، ولكنه لا يفضل من هذه الجهة العوام والأميين الذين يعملون ما لا يتوقف على تعلم المدارس من أعمال العمران كالفعلة وصغار الصناع والزراع من حداد ونجار وخباز ووقاد في سفينة أو قطار أو حمام ، كل من يؤدي الأمة عملا من الاعمال التي تحتاج اليه يكون جديرا بالشكر والثناء على قدر اتقانه له وبذل جهده فيه ، وباللوم والذم على قدر تقصيره فيه ، ووقوفه دون الغاية التي يستطيعها من إتقانه ، ولكن المتعلمين في المدارس العالية يجب ان تكون خدمتهم لأمتهم أرقى من خدمة الفعلة والصناع من العوام ، يجب ان يكون نفعهم متعديا ، يجب أن يكونوا قدوة لغيرهم في الفضائل والآداب ، والقيام بالمصالح العامة ، والمنافع المشتركة ، يجب أن يكونوا بذلك مربين لها ، وعمالا لرفع شأنها ، ولا يكونون كذلك الا اذا عنوا بتربية أنفسهم على الفضيلة والتقوى ، فاننا نرى كثيراً من الذين تعلموا في أرقى مدارسنا ومدارس أوربة العالية كانوا بفساد تربيتهم وبالاً على الامة إما بسوء أخلاقهم واتجارهم بمصالحها ، وإما بفسقهم واستهانتهم بشريعتها وشعائرها ، فيجب أن تراعوا في تربيتكم لأنفسكم ، نسبتكم الى أمتكم ونسبتها اليكم ، وان تتقوا التقليد الذي يبعدكم عن مقوماتها ومشخصاتها ، وتوخوا أن تكونوا معها كبيوت النحل المسدسة الشكل لكي يتصل بعض طبقاتها ببعض ، وان تمايزت الطبقات أو

الافراد في أنفسها بالعلم والحكمة كما تمتاز بعض بيوت النحل بوجود العسل فيها على ما لا عسل فيه

لا يتفاضل البشر في شيء كما يتفاضلون في نفع الناس والقيام بمنافعهم العامة ومصالحهم المشتركة ، وان أمتنا لتشكو من قلة العاملين للمصلحة العامة مالا تشكو من قلة العاملين بها ، فلو كان فينا كثيرون يعملون بما يعلمونه من مصالح الأمة ويؤثرون ذلك على أهوائهم لما كنا في هذه الحال السوءى التي نشكو منها . قال بعض علماء أوربة وكبرائها للاستاذ الامام : انا نرى فيكم من نذاكرهم فيجاروننا في كل علم ونراهم يفهمون المصالح والامور كما نفهمها سواء، فما هي علة تأخركم عنا ؟ الجواب الذي اتفق عليه العالمان المسلم والافرنجي أن علة ذلك هي كثرة العاملين للمصلحة العامة في الافرنج وندرتهم فينا

ينبغي لكل من كان كريم الجوهر عالي الهمة أن ينوي ويقصد المنفعة العامة في كل عمل يعمله، فان أقل فائدة ذلك أنه يرقي نفسه ويزيده كمالا وان لم يتم له ما ينوي ، لا يوجد عمل من الأعمال يتعذر فيه قصد المنفعة العامة ، واني أضرب لكم مثلا واقعاً على هذا من أغرب ما يؤثر عن الامم الحية . حدثني الاستاذ الامام أنه في بعض أسفاره أراد اختبار بعض أفراد الطبقة الدنيا من الافرنج وكان راكباً في سفينة انكليزية فسأل وقاداً فيها عن عمله الشاق وأجرته عليه ، ثم سأله .هل ترجو ارتقاء في حالتك هذه ؟ قال نعم، انني أفكر في عمل عظيم ، وأسعى الى ارتقاء كبير ، قال الاستاذ . ما ذلك ؟ قال الوقاد انك تعلم أن معادن الفحم الحجري محدودة وانهم يقدرون لها النفاد في قرون معدودة ، فانا أفكر في طريقة للاقتصاد في انفاق الفحم تكون به امتنا الانكليزية أغنى الامم به ، واستفيد انا من هذا الاختراع ثروة كبيرة ومجدا عظيما . فتأملوا رعاكم الله كيف توجهت همة ذلك الرجل الذي هو أدنى الناس حرفة وعملا الى أن ينفع أمته العظيمة الغنية ويحمي ثروتها ويجعل الامم والدول في حاجة اليها ، وان ينفع نفسه من طريق نفع قومه ، وهو لم يتجاوز بذلك حدود عمله ، ولم يدفعه الغرور الى الاشتغال بما لا يعد من أهله ، أفيعجز كل فرد من أفراد المتعلمين أن يكون له مثل هذه النية الحسنة ، والهمة العالية ؟

أيها الطلبة النجباء ! إن شعوب البشر متفاوتة في الاستعداد للكمال الانساني، وانا معاشر الشرقيين عامة ، والمسلمين خاصة ، ما سبقتنا الامم التي نراها الآن أعلى منا الى العلوم والحضارة لأن استعدادنا الفطري دون استعدادها ، فعليكم ان تفكروا

دائماً في استعدادكم ، وأن تستعملوه في طلب الكمال لانفسكم وأمتكم ، وانتم قادرون على ذلك

ولم أر في عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام

واعلموا ان قيمة الذي يعمل لاجل أن ينال قوتا مضمونا من الحكومة أو من غير الحكومة لا تكون الا بقدر جثته التي يسعى لتغذيتها ، وانما لقيمة قليلة لا يفضل بها الثور ولا الحمار الذي يأكل أضعافهما يأكل الانسان ، ولا يتألم كما يتألم الانسان. ومن تعلو به همته فيطلب أن يكون وجوده اوسع من محيط جسمه فانه ينال ما يطلبه فاذا هو قام بنفع بلده كان وجوده بقدر بلده بحيث يكون ذكره مالئا له ، واذا هو قام بخدمة أمته كلها ، بعمل نافع يعمه لها ، فان وجوده المعنوي يكون واسعا بقدر سعة أمته كلها ، لا يجهل ذلك قطر من أقطارها ، واذا هو استطاع ان ينفع جميع البشر فليفعل ، فان وجوده يكون بقدر العالم الذي انتفع به ، وامثال هؤلاء الرجال هم الذين يوزن الواحد منهم بأمة ، قال تعالى « ان إبراهيم كان أمة » وقال في عباد له أعدهم لنفع الامم « ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وعلمنا ان ندعوه بقوله « واجعلنا للمتقين إماما » فعليكم أن تربوا أنفسكم على علو الهمة ، وخدمة الامة ، لتكونوا من الأئمة ؛

ان الانسان لا يكون قدوة في الخير نافعا للناس الا اذا كان فاضلا كريم الاخلاق ، وان مساوي الأخلاق تشين العالم ، اكثر مما يشين الجهل رب الاخلاق الكرائم ، ولا يفسد الامم شيء كفساد أخلاق علمائها وحكامها وزعمائها ، فاذا قصرتم في تربية ملكة الفضيلة في انفسكم ، فانكم تضرون أكثر مما تنفعون بعلمكم ، اما الطريق الذي ينبغي أن يسير عليه المرء في تربية نفسه فهو أن يلتزم الاعمال التي تطبع ملكتها في النفس ويتكلفها ويواظب عليها ، ولا يتساهل في كبير ولا صغير منها ، وأن يجعل له مراقبا من إخوانه يذكره اذا نسي ، ويلومه اذا تساهل ، واذكر لكم على سبيل المثال ما جربته بنفسي : قلت لرفيق لي في طلب العلم اذا قدرت ان تحفظ علي كذبة واحدة فلك حكمك في الجزاء عليها ، قلت له هذا وما انا بآمن على نفسي من فلتات اللسان ، ونزغات الشيطان ، وانما اردت ان يكون ذلك حاملا لي على شدة الاحتراس من الكذب الذي هو شر الرذائل واشدها ضررا ، واحمد الله أنه لم يستطع ان يحفظ في السنين الطوال التي عاشرني فيها كذبة ما ، وما أبرئ نفسي

ولا أزكيها بهذا ، وانما اريد ان اذكركم ايها الاخوة النجباء بما جربته واستفدت منه لعلكم تعتبرون

الفضيلة والتربية الدينية

لا فضيلة الا بالدين فمن لم يترب تربية دينية لا يكون على شيء يعتد به من مكارم الاخلاق ، وقد ينشأ بعض الناس على الفضائل والآداب الدينية ثم يعرض له الشك في دينه او الجحود في الكبر، ولكنه اذا استطاع التفلت من جميع عقائده، لا يستطيع التفلت من جميع فضائله ، وقد يغتر هو بنفسه او يغر غيره بما بقي له من آثار صبغة الدين فيقولون ان الكفر قد اتفق مع الفضيلة ، ويغفلون عما يحدثه له هذا الكفر من انواع الرذيلة ، وقد يسمون بعض الرذائل بأسماء الفضائل او يعدونها منها ،

يوجد أفراد من الملاحدة في البلاد الغربية يزعمون أنه يمكن أن يستغنى في تربية النفس عن الدين ، بأن يقام بناء الفضيلة على اساس العلم والعقل ، بأن يقنع المربى من يربيه بأن الرذائل ضارة بفاعلها ، أو بالهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، وأن الفضائل دعائم المصالح والمنافع ، كأن يقال له : إن الكذب قبيح متى عرف به امرؤ بطلت الثقة به ، ومن لا يوثق به تفوته منافع كثيرة ، ويكون محتقرا في أنفس الناس ، ويقال له نحو هذا في مدح الأمانة والترغيب فيها ، ويرون ان هذا النحو من التربية أفضل وانفع من التربية الدينية التي اساسها عندهم التخويف من عقاب الآخرة ، وقد سمعنا بعض مقلديهم من المتفرنجين يلوكون أمثال هذه الكلمات ويتشدقون بها ويرون انهم ينطقون بالحكمة ، ويرفعون قواعد الفلسفة

كان سبب حدوث هذه الأفكار في أوربة ما سبق من ضغط رجال النصرانية في القرون الخالية على رجال العلم ، واحرار الفكر، اذ كانوا يقتلونهم تقتيلا ، ويحرقونهم بالنار أحياء ، فكان من مقتضى سنة رد الفعل ان يغلو أحرار الفكر من المارقين من النصرانية في ذم الدين والتنفير عنه ، وقد وجدوا في كتب ذلك الدين وتقاليده وسيرة بعض رؤسائه مجالا واسعا للطعن والتنفير ، ومع هذا كله لا يزال السواد الأعظم من الشعوب الافرنجية كلها يربون أولادهم من النشأة الأولى على آداب الدين وفضائله ولا سيما الانكليز والجرمانيين منهم ، ويخصون الاناث بمزيد العناية في التربية الدينية لأنهن هن اللواتي يربين الأولاد في الطور الأول من حياتهم ،

ويؤثر عن الفيلسوف سبنسر ــ أكبر علماء الاجتماع والتربية في هذا العصر ــ أنه قال ما معناه : ان بعض الناس يريدون تحويل تربية الفضيلة عن اساس الدين الى أساس العلم ، واذا وقع هذا بالفعل يقع به الناس في فوضى أدبية لا يعلم أحد عاقبتها (١)

مالنا ولكلام الناس وافهامهم ، انا نعلم بالنظر والاختبار أن إقناع جميع طبقات الناس بنفع الفضائل وضرر الرذائل وحملهم على العمل المطرد في ذلك مما لاسبيل اليه ، ولا مطمع فيه ، فالولدان لا يعقلونه ، وبلداء العوام وجماهير الشعوب الهمجية لايقتنعون به ، واكثر الاذكياء يجعلون أنفسهم معيار المنافع والمضار ، فيؤثرون ماينفعهم وان أضر بغيرهم ، ويطبقون ذلك على قانون فضيلة المنافع بالتأويل ، فاذا قدر الواحد منهم على أكل مال غيره بالباطل أو خيانته في عرضه وأمن اطلاع الناس عليه خان في المال والعرض ، وأوّل ذلك في نفسه بأنه هو احق بالمال واجدر به ، لانه يضعه في مصارفه التي هي انفع للناس وله ، ويزعم ان صاحب المال لايقدر على أن يأتي بمثل نفعه وعمله ، ولا يأبى ان يقول ان الخيانة في العرض لاضرر فيها ، لانه يفسر الفضائل والرذائل بحسب الشهوة والهوى ، وقد صرح أمامي من يعدّ في الطبقة العليا من حرية الفكر بأن أكل مال الناس بالباطل (أي بدون مقابل ولاتراض) يعد من الفضيلة ، اذا كان سارقه أو ناهبه أو الخائن فيه ينفقه فيما يراه أنفع للهيئة الاجتماعية مما ينفقه فيه صاحب المال ، ولا يخفى على عاقل ان الناس يختلفون اختلافا كبيرا في النافع والانفع وضدهما فما يراه بعضهم نافعاً يستحق الشكر ، قد يراه بعضهم ضارا يستحق فاعله القتل ، فاذا لم يكن لهم دين يحكم كتابه بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وجروا على استباحة كل منهم مايرى أنه ينفع به مالاينفع غيره ، ألا يكونون في فوضى وخبال تفسد عليهم أمرهم ، حتى يأذن الله بهلاكهم ؟

يقول غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) ان بعض القضاة عندهم في (فرنسة) احصى عدد المجرمين الذين حكمت عليهم محكمة الجنايات فكان ثلاثة ارباعهم من المتخرجين في المدارس العالية والربع من عوام الناس ، ونحن نعلم أن

---

(١) كنت أريد ان أذكر في هذا البحث كلمة للفيلسوف ابن رشد ــ اشهر حكماء عصره ــ ثم نسيتها وهي ان الفيلسوف الحقيقي لايجوز ان يجعل الدين محل الشك والاثبات ويوضع موضع البحث لان ذلك يتضمن جعل مبدأ الفضيلة واساسها موضع الشك وذلك هدم للفضيلة اه بالمعنى ومثاله ان يشكك المريض في أصل الطب ويحمل على ان لا يقبل المعالجة والدواء الا بعد البحث في علم الطب نفسه واقامة الحجة على نفعه

الذين لايجرمون من هؤلاء المتعلمين الماديين لايصدهم عن الاجرام والجناية المضية وانما يصد بعضهم خوف الفضيحة او عقاب الحكومة اذا ظهرت الجناية ، وبعضهم اشتغاله بعمل يصرف عنها ، وعن الشعور بالحاجة اليها ، وبعضهم تأثير التربية الدينية الاولى ، ولا يكاد يتعفف عن الرذيلة أحد تدفعه شهوته اليها وتقربه أسبابها منها ، الا المتدين الذي يراقب الله تعالى ويخشاه ، أو الفيلسوف العالي النفس اذا ثبت عنده انها رذيلة ، والا فانا نرى سيرة كثير من الفلاسفة ملوثة بالرذائل الكثيرة ، وهذا من معنى قولنا ان الفضيلة القائمة على قواعد الدين تكون عامة ينتفع بها جميع طبقات البشر في بداوتهم وحضارتهم بقدر حظهم منها ، وأما الفضيلة العقلية الفنية المحضة فلا تكون الا خاصة ببعض أفرادهم الممتازين ، على مايعرض فيها من سوء التأويل

أضرب لكم مثلا رجلا فقيرا بائسا من بلدنا (القلمون) يكنى « أبا حطب » كان يحمل الخضر والفاكهة على ظهره ويصعد من بساتين القلمون او طرابلس الشام الى جبل لبنان ينتقل بها من قرية الى قرية ليبيعها ويأكل من ربحها ، شب وشاب على ذلك — هذا الرجل البائس وجد مرة في شارع من شوارع ميناء طرابلس خال من الناس كيسا كبيرا مملوءا بالنقود الذهبية (الليرات) فتناوله ووضعه في سلة الخضر التي يحملها على ظهره ومضى يسير الهوينا على عادته الى أن رأى في الطريق رجلا روميا ملهوفا يعدو ويصيح « خرب بيتي » فعرف الرجل المسكين بالقرينة انه صاحب الكيس فناداه — وهو لايلتفت اليه — فقال « ياخواجه تعال ياخواجه » فأقبل عليه الرومي فسأله ماذا ضاع لك ؟ قال كيس من الذهب فيه كذا من الليرات ، فأخرج له الكيس وقال : أهذا كيسك ؟ قال : نعم نعم قال خذه ، فأخذه الرومي ولم يعطه شيئا ، فسأله بعض الناس لماذا أعطيت هذا الرومي الخبيث الكيس وهو لم يعلم أنه كان معك ولو أخذته لأغناك عن بيع الخضر طول عمرك ، فقال اذا كان هو لم يعلم أني أخذت الكيس فان الله علم بذلك وهو مطلع علي

هذا مافعله البائس الفقير « ابو حطب » بوازع الدين وهو مطمئن القلب منشرح الصدر ، أفرأيتم لو كان قد تلقى من بعض الفلاسفة الماديين إنه لا إله ولا دين ولا حياة للناس بعد هذه الحياة وان الامانة واجبة عقلا لأن الهيئة الاجتماعية لاتصلح بدونها ، أكان يعطي الكيس لذلك الرومي وأكثر هؤلاء الاروام عندنا اشرار شرسون لايحبهم الناس ولا يرجون منهم خيرا ؟ لا والله ، بل لو وجده بعض القضاة الماديين الذين عهد اليهم إقامة ميزان العدل وإحقاق الحق لا كلوه فرحين مستبشرين

أكتفي بهذا البيان الوجيز في اثبات كون تربية النفس على الفضيلة لاتتم الا بالدين ، وكون كل دين من الاديان أعون عليها من تلك الفلسفة الناقصة ، التي لا يمكن ان تكون عامة ، وان كانت الخرافات والتقاليد الوثنية في اكثر الاديان تنافي كثيرا من الفضائل ، وتكون مثاوا لكثير من الرذائل

الفضيلة في الاسلام وقاعدة درء المفاسد وجلب المصالح

أيها الاساتذة والطلاب الكرام ! ان عذر من قال من علماء الافرنج بالرغبة عن التربية الدينية الى التربية الملية هو أنهم وجدوا في الدين الذي نشأوا فيه وسائر الاديان التي عرفوها خرافات كثيرة تضل العقل وتحول بين البشر وبين كمال الانتفاع بمواهبهم وما سخره الله لهم من الكون ، وتقسر وجدانهم على قبول ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولو عرف هؤلاء العلماء حقيقة الدين الاسلامي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله التي جرى عليها لما قالوا ذلك القول ولما ذهبوا الى ذلك المذهب على الاطلاق

لو عرفوا الاسلام من كتابه وسنته — لا من سيرة أهله في هذه الازمنة — لوجدوا في أصوله كل مايرونه نافعا من تربية النشء على اجتناب الرذائل والمفاسد لضررها ، والتزام الفضائل ومراعاة المصالح لنفعها ، فان بناء الاحكام والاعمال على قاعدة درء المفاسد والمضار وجلب المنافع ومراعاة المصالح ، من القواعد الاسلامية المتفق عليها ، ومن أصول ديننا أن الله غني عن العالمين رحيم بهم فما حرم عليهم شيئا الا لانه ضار بهم ، ولا أوجب عليهم شيئا الا لانه نافع لهم ، « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال تعالى فيمن آمن من أهل الكتاب « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم » وان المعروف هو ماعرفته العقول القويمة ، والطباع السليمة ، والمنكر ما أنكرته ، والطيب مايطيب للناس لنفعه ولذته والخبيث ضده ، وقد ضبط بعض علمائنا اشتات المنافع بخمس كليات وهي ١ حفظ الدين ٢ و حفظ النفس (أي حفظ ذوات الناس ان يعتدى عليهم بالقتل او الايذاء) و ٣ حفظ العقل و ٤ حفظ العرض و ٥ حفظ المال

ان القرآن الحكيم قد قرن فريضة العبادات المحضة ببيان منافعها فقال « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أي ان الذي يقيم الصلاة على وجهها المطلوب تطهر نفسه وتزكو بمناجاة الله وذكره وتلاوة حكم القرآن وعبره ، وتصير

مراقبته تعالى ملكة له ، حتى تنفر نفسه من الفواحش والمنكرات ، وقال « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فبين ان الصيام يقصد به تربية ملكة التقوى وهي ان يملك الانسان نفسه وهواه فيسهل عليه اتقاء مايضره ويشينه في دينه ودنياه ، وذلك أن من تعود ترك الشهوات التي لا يستغني عنها لحفظ شخصه وحفظ نوعه وهي الاغذية والوقاع يكون أقدر على منع نفسه عن غيرها من الشهوات والأهواء الضارة غير الضرورية ، ومما جاء فيه عن الحج قوله « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات » الخ وأما الآيات في فوائد الزكاة وبذل المال في سبيل الله - وهي سبيل الحق والخير - فكثيرة . فاذا كان هذا الكتاب الحكيم يعلل امهات العبادات ببيان منافعها وفوائدها فهل يأبى أن تعلل الاحكام الدنيوية والآداب الاجتماعية بالمنافع والفوائد ؟ كلا انه ارشدنا اليها بمثل قوله « أدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ومثل قوله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »

أيها الاخوة الكرام !

لا يمكنني في هذا الوقت القصير ان أطيل الشواهد على موافقة اصول الاسلام وفروعه للعقل والفطرة البشرية ومصالح الناس ومنافعهم وانما اقول انني مستعد لاقامة الحجة على كل من يدعي خلاف ذلك فمن عرضت له شبهة فيه فليوردها علي في حال القرب ، وليكتبها الي في حال البعد ، وانا زعيم ان شاء الله تعالى بكشفها واقناعه فيها ، اذا كان طالبا للحقيقة بالاخلاص ، وقد جربت هذا مع كثير من الشرقيين والغربيين

كان لي صاحب في مصر من احرار الانكليز اسمه متشل انس كان وكيلا لنظارة المالية ، وقد جرى بيننا مذاكرات كثيرة في المسائل الدينية وغيرها وكان كثيرا ما يعترض على بعض المسائل الدينية في الاسلام أو في كل دين وكنت اذا بينت له حقيقة الاسلام فيها يتعجب ويقول لي تارة « هذه فلسفة لا دين » وتارة « هذا رأيك وفلسفتك ما هو الاسلام » وقال لي مرة « اذا كان هذا هو الاسلام فانا مسلم » ومرة أخرى « اما ان اكون انا مسلما واما ان تكون أنت كافرا » ومرة ثالثة « ما اسمع مثل هذا الكلام المعقول عن الاسلام الا منك اومن الشيخ محمد عبده افلا يوجد مسلمون غيركما » ومرة رابعة « أرأيت اذا سألت عن هذا بعض علماء الازهر أيقول هذا الذي قلته ؟ اذا قال هذا علماء الازهر فانا اكون مسلما»

انني بهذه التجارب وبما أعلم من حقيقة الاسلام وموافقته لفطرة البشر ومصالحهم

ومن حاجتهم الى الدين بمقتضى فطرتهم ، وبما في القرآن من الوعود الصادقة - بهذا كله اعتقد ان الاسلام سينتشر في جميع الامم الغربية والشرقية ، وما حجب امم الحضارة عن محاسن الاسلام الا سوء حال المسلمين والجهل بحقيقته وتنفير دعاة الدين ورجال السياسة عنه وعن أهله

اننا نحن المسلمين قد صرنا حجة على ديننا بما فشا فينا من البدع والخرافات ولو كنا مستمسكين بعروته ، محافظين على سنته ، لعم الخافقين ، فان انتشاره السريع في العصر الأول لم يكن الا بحسن حال أهله وفضائلهم وأعمالهم كما اشرنا الى ذلك في الكلام على نشأة الاسلام وفصلناه بعض التفصيل في خطبتنا الختامية لاحتفال جمعية ندوة العلماء ، وقد وصلنا الى دركة من الانحطاط صار فيها الوثنيون في هذه البلاد ارقى من المسلمين علما وعملا واتحادا ، هؤلاء الذين لا يزال الملايين منهم يسيرون في الاسواق والشوارع مكشوفي العورات ، عراة الاجسام ، حفاة الاقدام ، موسومي الجباه بأصباغ الاصنام ، بل صار هؤلاء الذين يعبدون الأحجار والأنهار والاشجار والقرود يطمعون في إدخال المسلمين في دينهم ، وقد صاروا يتصدون الى دعوتهم ، وقد بلغني هنا انه دخل في دينهم طائفة ممن يعدون من المسلمين ، وان لم يكونوا منهم الا في الاحكام الرسمية ، والاحصاآت الجغرافية ، ولا يوجد شعب اسلامي محتاج في حياته السياسية والاجتماعية الى الدين كاحتياج مسلمي الهند ، فانهم اذا أحيوا الاسلام فيما بينهم تعود كثرة الوثنيين الى قلة وقلة المسلمين الى كثرة « وانما العزة للكاثر » كما قال الشاعر العربي

هذا وانه لا حياة للاسلام ، الا باحياء هداية القرآن ، ولا تحيا هداية القرآن الا باحياء اللغة العربية ، ومن حسن حظكم أن حكومتكم راغبة في إحياء لغة دينكم ، فاذا قصرتم فيها فلا عذر لكم ، عليكم أن تحيوها في هذه المدرسة التي هي اكبر المدارس الاسلامية في الهند ، عليكم ان تتعلموها كما تتعلمون اللغة الانكليزية بالتكلم والقراءة والكتابة ، اذا كنتم محتاجين الى اللغة الانكليزية لأجل دنياكم ، فانتم محتاجون الى اللغة العربية لأجل دينكم ودنياكم ، فالحياة الصورية المادية ، لا تقوم وتثبت وتنمي الا بالحياة الأدبية المعنوية ، والا فان الوثنيين قد سبقوكم في جميع العلوم والأعمال الدنيوية ، وهم اكثر منكم عددا ، وأوفر مددا ، فلم يبق أمامكم الا قوة دينكم ، تبلغون بها ما تريدون في دنياكم وآخرتكم ، لانها قوة الحق والخير وهي اكبر قوة في الكون

العزيمة وتربية الارادة

اشرت في سابق كلامي الى ما يجب من تربية الارادة ، وإحكام ملكة العزيمة ، وهذا النوع من التربية هو العزيز النادر الذي يقل فيمن يفكر فيه ، وفي الحاجة الشديدة اليه ، وقد رأيتني مضطرا الى التنويه بعد تذكير الطلبة النجباء بالواجبات التي تطالبهم بها أمتهم وملتهم ، فان ضعيف الارادة يستكبر هذه الواجبات ، حتى يعدها من المحال ، الذي لايدرك ولا ينال ، وأما قوي الارادة فانه يراها من أقرب الامور منالا ، واسهلها طريقا ، وهو لايأبى ركوب الصعاب ، واقتحام العقاب ؟ ، في المهامه الطامسة الاعلام ، البعيدة الارجاء ، اذا ظن انه يدرك بها الامل وينال الرجاء

ايها الطلبة النجباء !

لا يتفاضل الناس في شيء تظهر به مزاياهم كتفاضلهم في قوة الارادة ، وماآتى الله الانسان قوة يعلو بها شأنه ، ويظهر بها استعداده ، كقوة الارادة ، بقوة الارادة تصرف الانسان في الطبيعة ، وسخر لمنافعه انواع الخليقة ، وعمل بعض افراده من الاعمال ، مالا تعمله الامم في الاجيال ، وقد عبر بعض كبار الصوفية عن سر الله الاعظم في ارادة الانسان بكلمة كبيرة جدا قد يستنكر ظاهرها ويعدها اساءة ادب مع الباري عز وجل ولكن هذا ان عد من لوازم الكلمة فهو ليس مرادا لمن قالها . تلك الكلمة الكبيرة هي قوله « ان لله عباد (١) اذا أرادوا أراد » يعني ان أصحاب الارادة اذا جزموا ارادتهم بأن كذا لابد ان يكون فان ذلك يكون سببا كافيا لان يكون وتتعلق ارادة الله تعالى به بحسب سنته في خلقه ، فكأن ارادتهم شعبة من الارادة الالهية ، اولئك اصحاب العزائم الذين تشهد لهم أعمالهم العظيمة ولا شهادة أبلغ من شهادة الاعمال

أيها الشبان النجباء : اعلموا أن من فقد ارادته فقد نفسه ، وكان آلة في يد غيره او تابعا لهوى نفسه ، ولا يمكن ان يكون رجلا عظيما ، ربوا إرادتكم بحملها على ترك الهوى الباطل ، وتعويدها حمل المكاره في سبيل الحق والخير ، لتكونوا مالكين لأنفسكم لا مملوكين لها ، ومن كان عاجزا عن التصرف في نفسه ، فهو جدير بان يكون أعجز عن غيره ، ضعيف الارادة لا يكون الا نذلا جبانا ، والجبان لا يكون

(١) روينا الكلمة بالسكون لاجل السجع وهو موافق للغة ربيعة والا فالقياس ان يقول « عبادا » ويصح ان يقول حينئذ « ارادا » في السجعة الثانية

الانجاحا او منافعا، فعليكم بالشجاعة والعزيمة والنجدة وعلو الهمة ، فبغير هذه الصفات لا تظهر مزايا الانسانية فيكم

لا تهولنكم الواجبات التي تطلبها الامة منكم فان الارادة الصادقة لا يقف امامها شيء ، الارادة الصادقة أعظم قوة خلقها الله في هذه الارض ، فلا تغفلوا عن تربيتها في انفسكم والاستفادة منها في بلادكم ، وقل من صدقت ارادته في طلب شيء ولم ينله اليوم اذا طلبه من أسبابه ، ودخل عليه من بابه ، أن مدرستكم هذه شاهد من أصدق الشواهد على صحة ما أقول ، فانتم تعلمون ان مؤسسها السيد احمد خان رحمه الله تعالى قد صادف في سبيلها المصاعب ، واحتمل المتاعب ، ولولا قوة ارادته وثباته لقضي عليها في طفوليتها ، فهو بما كان عنده من العزيمة والثبات قد غالب المصاعب وصارعها ، حتى غلبها وصرعها ، ووصلت المدرسة الى الدرجة التي ترونها من السعة والعظمة ويرجى لها المزيد ، فهل كان يخطر مثل هذا في بال أحد من الجبناء أصحاب الارادة المريضة في طور تأسيس هذه المدرسة ؟ ولو قصد السيد أحمد خان ماهو أعلى من ذلك وأتم فائدة لناله بقوة الارادة ، وقد علمتم أن المدرسة أنشئت لغرض لا بد للمسلمين في الهند منه فكانت الطريق الموصل اليه ، وان هذا الغرض ليس هو كل المطلوب لامة مثل أمتكم هي في بلادكم على خطر اجتماعي واقتصادي بسبق الوثنيين لكم في العلم والثروة والاتحاد على كثرتهم وقلتكم ،

اني كررت النذر ورددت الذكرى عسى ان تسموا بأصحاب الاستعداد هممهم الى تربية أنفسهم ، واعدادها لخدمة أمتهم وملتهم ، وعدم الرضا لها بالضعة والخمول ، والقناعة بترفيه هذا الجسد الحيواني باللباس والقوت ، كونوا قدوة صالحة لامتكم بالفضيلة والتقوى والمحافظة على شعائر الدين وفرائضه ، كونوا مستقلين في عقولكم وأفكاركم ، مستقلين في ارادتكم ، بحيث لا تخافون في سبيل الحق والمصلحة لومة لائم ، واياكم والتقاليد والبدع الغربية التي تبعد أهل ملتكم عنكم وتبعدكم عنها ، كونوا جامعين لا مفرقين ، كونوا مرغبين للامة في العلوم العصرية التي تنمي الثروة وترقي جميع مرافق البشر ومنافعهم ، ولا تكونوا بسيرتكم الشخصية منفرين لهم منها ، ان المسلمين في بلادكم انقسموا في كل بلاد دخل فيها التعليم الأوربي الى ثلاثة أقسام ، قسم فتن بالجديد فمقت كل القديم ، وقسم جمد على القديم فهو ينفر من كل جديد ،

وقسم معتدل بينهما ، يأمر بالمحافظة على القديم النافع وترك الضار منه بالتدريج ، واضافة ما لا بد منه من الجديد بشرط حفظ مقومات الامة ومشخصاتها والحذر من فنائها في غيرها ، فكونوا من المعتدلين الجامعين فأنتم في قومكم أعرف من غيركم بالحاجة الى هذا الجمع ، وخطر الخلاف والتفرق ، وأمامكم الامة الانكليزية في سيرتها وأخلاقها عبرة لكم لاتضاهيها عبرة ، انها لا تترك شيئاً من عاداتها ولا تقاليدها ولو الى أحسن منه الا اذا اضطرت اليه فانها تأتيه بالتدريج والا أصرت عليه كما تصر على مقاييسها ومكاييلها ولا تتركها الى المقاييس والمكاييل التي هي خير منها ، والعاقل من اعتبر بغيره والله الموفق وإياه أسأل أن يتم النفع بكم لامتكم انه سميع مجيب

بشائر عيسى ومحمد (*)

﴿ في العهدين العتيق والجديد ﴾

٥

(١) ما يدرينا أنه ونحوهم لم يصل إلينا ذلك مع العلم بأن نفس كتاب الاناجيل اعترفوا بأنهم لم يكتبوا كل ما قاله المسيح أو ما فعله فقال يوحنا انه لم يكتب كل ما فعله المسيح وأن أعماله كثيرة جدا لا يسعها العالم فلا بد أن كثيرا من أقواله التي قالها حين فعل هذه الاعمال لم تكتب أيضا (يو ٢١:٢٥)

على أن المسيح صدق ما فيها من الشرائع والنبوات فقط كما في انجيل متى ٥:١٧ و ١٨ ولم يتعرض للتاريخ الذي فيها بشيء كهذا الذي في انجيل متى فان كثيرا من هذا التاريخ غير صحيح و بعضه خرافي لا يمكن أن يقره المسيح كقصة شمشون ودليلة (قض ١٦: ٤ــ٢٢) ووقوف الشمس ليشوع (يش ١٠ : ١٣) وغير ذلك كثير

(٢) لماذا لم يوبخ المسيح اليهود على الكتب الابوكريفية (الكاذبة) التي كانت في الترجمة السبعينية وقتئذ وكانت مسلمة عند اليهود والنصارى كما هي مسلمة عند الكاثوليك والأورثوذكس إلى اليوم ؟ فان قيل إنهم ربما لم يكونوا

(*) تابع لما نشر في الجزء السابع ص٤٩٤ بقلم الدكتور محمد توفيق صدقي